

بين تفحص ملايسات التحصيل واستكشاف نواميس الكلام من خلال تلك الملايسات في نفس الوقت ولكن أول مبدأ ينطلق منه اختبارياً هو تقرير أن «السمع أبو الملكات اللسانية» (ص ٥٤٦) والسر في ذلك - حسبه - أن النفس تجنح لما يلقي إليها، لذلك كان لسان الإنسان صورة للسان من ينشأ بينهم لأنه يسمع كلامهم وأساليب مخاطبتهم وكيفيات تعبيرهم عن مقاصدهم ابتداء بالمفردات في معانيها وانتهاء بالتركيب في انتظام بعضها ببعض ولا يزال يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة راسخة .

وهكذا يتركز على يد ابن خلدون مبدأ الارتياض بالمعاودة فيكون اكتساب الحدث اللغوي محصول معادلة الممارسة والتكرار أي هو منتج الفعل مضروباً في الزمن، وهذا هو حد الملكة كما أسلفنا «والملكات - كما يقول ابن خلدون في هذا السياق بالذات - لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة تتكرر فتكون حالاً ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار، فتكون ملكة، أي صفة راسخة» (ص ٥٥٤) ويديهي أن يلح ابن خلدون - ومنطلقاته على ما تبين من الصرامة الاختبارية - على تمييز ملكة الحدث اللساني عن مجرد الفهم أو الإدراك لأن القدرة على فهم قوالب المواضع اللغوية لا تتضمن وجوب القدرة على صياغة تلك القوالب أو مثيلاتها، فلحظة عقد الاكتساب تتحدد إذن بحصول القدرة على التصرف في التعبير بحسب ما وعاه الإنسان من تراتيب الألفاظ وأساليب النظم (ص ٣٥٩) .

ذلك إذن ما يمكن أن نطلق عليه لحظة التحول من الاختزان